مجلة عصور المجلد 17 العدد الأول سبتمبر 2018
ردمد ISSN 1112-4237 الإيداع القانوني 2003- 868 Depot légal

رحلة القلصادي ودورها في تدوين تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس

دة. نوال بلمداني
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر
naouel.belmaddani@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال:08-03-2018

الملخص:

أدب الرحلة هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان، ويُعدُّ هذا الأدب من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، ومن المعلومات التي دُوِّنت ضمن هذا النوع من المصنفات تلك العلاقات الثقافية التي ربطت بين مختلف مناطق العالم الإسلامي مشارقه ومغاربه.

ومن أشهر الرحلات في هذا المجال "رحلة القلصادي"، هذه الرحلة التي استغرقت خمسة عشرة سنة، أبدى من خلالها الرحّالة مشاركة جدية وفاعلة في جميع الحلقات العلمية التي كان يرتادها مقيما ومرتحلا، حتى أنّه ذكر ثلاثة وثلاثين شيخا أخذ عنهم في كلّ من الأندلس وتلمسان وتونس ومصر والحجاز في علوم ومعارف شتى. وتأكيدا لهذه الأهمية التاريخية اخترنا موضوع "رحلة القلصادي ودورها في تدوين تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس".

إنّ الهدف من هذه الورقة البحثية هو التعريف برحلة القلصادي ودورها في الكشف عن التبادل الثقافي وحركة العلماء بين المغرب الأوسط والأندلس، وإبراز المكانة العلمية لعلماء المغرب الأوسط داخليا وخارجيا، وكذا التأكيد على مختلف العلوم التي نبغوا فيها.

لقد كشفت الدراسة عن أهمية منطقة المغرب الأوسط في المجال العلمي والفكري خلال القرن 9ه، إذ شكلت مركزاً للإنتهال، والتحصيل، والتدريس، وحتى التأليف، لدى قصدها علماء الأندلس، وهذا ما يؤكد على وجود تواصلٍ فكري بين المجالين.

الكلمات المفتاحية: القلصادي، الرحلة، المغرب الأوسط، الأندلس، علماء، علوم عقلية ونقلية.

Abstract :

The expedition literature is the literture in which the writer depicts what happend to him and what he came across to during his trip in certain countries.this literature is one of the most important historical and social records of geography, and the information that has been included in this type of works is the cultural relations that had been estalished different regins of the isslamic world, mashreq and maghreb.

And one of the most famous trips that had been recorde dis « Al Qalasadi journey », this trip, whach lasted fifteen years, during which the traveler participated seriously and effecatively in all and active in all seminars of the scientific frequented by resident and in travel, even he mentioneed that thirty- tree experienced old men instructed him in the Andalous , Tlemcen, Tunis, Egypt, and Al hijaz in order to confirm its historic importaancee, we chose the theme « trip of Ai-Qalasadi » and its role in recording the history of the cultural relations between the middle Maghreb and Andalous, and to highlight the scientific status of the Middle Maghred scholars internally externally.

The study revealed the importance of the Middle Maghred region in the scientific and intellectual field during the 9th hijri century. It was a center for the exploitation, collection, teaching and even authorship of the Andalusian scholars. This confims the existence of intellectual communication between the two fields.

Keywords:

trip of Ai-Qalasadi, intellectual communication, middle Maghreb, Andalous

مقدمة:

يعْرَفُ أدب الرحلة على أنّه ذلك الأدب الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداثٍ، وما صادفه من أمورٍ في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان، خاصّةً عندما يتعلق الأمر بطلب العلم، هذا الأخير الذي لا يمكن أن تكتمل معارف طَالِبه إلاّ بعد انتهاله من منابع العلوم والمعارف، وهو ما يخبرنا به ابن خلدون قائلا: "لابد منها (الرحلة) في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[1]، ويضيف: "... البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً وتارةً محاكاةً وتلقينا بالمباشرة..."[2] ، أمّا القلصادي فيخبرنا عن فوائد الرحلة من خلال أبياتٍ جاء فيها:

تَغْرَب عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ العُلاَ وَسَافِر فَفِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدُ
تَفرج هَم وَاكْتَسَاب مَعِيشَة وَعَلَم وآدَاب وَصُحْبَة مَاجد
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ هَمٌ وكُرْبَة وَقَطْعُ فَيَافٍ وَاقْتِحام شَدَائد

لكن الرحلة تختلف باختلاف دوافعها وأغراضها- وذلك منذ القدم-، فلعل من أهم بواعثها وأعظمها شأناً عند المسلمين تأدية فريضة الحج ومناسك العمرة، وقد تكون علمية بغرض لقاء الشيوخ والعلماء والتتلمذ عليهم كما سلف الذكر، وربّما تكون سفارية ذات أهداف سياسية ديبلوماسية، إلى جانب الرحلة الاستكشافية والتجارية، هذه الأخيرة التي اتسع نطاقها عند المسلمين في العصور الوسطى برّاً وبحراً[3].

ولا يخف على الباحث مدى أهمية هذا الأدب باعتبار مصنفاته من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ فالكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحيّةِ، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءته مفيدة

1 - ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، د/ط، دار الجيل، بيروت، د/ت، ص598.
2 - المصدر نفسه، ص598.
3 - نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط(1987م)، صص 147، 148/ عبد اللطيف مؤمن، رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس، ضمن كتاب جماعي "أدب الرحلة والتواصل الحضاري"، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ط(1993م)، ص275/ زكي محمد حسن، الرحلة المسلمون في العصور الوسطى، د/ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافية، القاهرة، د/ت، ص10/ أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، د/ط، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د/ت، ص 13.

وممتعة، ومن المعلومات التي دُوِنّت ضمن كتب الرحلة تلك العلاقات الثقافية التّي ربطت بين مدن المغرب الإسلامي والأندلس، وهو ما وقفنا عليه من خلال رحلة القلصادي، التّي استغرقت خمس عشرة سنة (840 هـ - 855 هـ) ولم تكن للمسير والفرجة واكتشاف المجهول فحسب، بل أبدى من خلالها مشاركةً جديّةً وفاعلةً في جميع الحلقات العلمية التي كان يرتادها.

ونظراً لهذه الأهمية، وكذا زيارة القلصادي لمنطقة المغرب الأوسط وبخاصة مدينة تلمسان، تم اختيار موضوع بعنوان "رحلة القلصادي ودورها في تدوين تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس"، وذلك من أجل التأكيد على مكانة علماء المنطقة داخليا وخارجيا، وأهم العلوم التي تألّقُوا فيها حسب ما قدّمه صاحب الرحلة من معلومات، معتمدين في ذلك على استخراج النصوص وتحليلها وتمحيصها من أجل تأكيد أهمية المدن التي زارها القلصادي في المجال الثقافي، وكذا التبادل الفكري بين القطرين معتمدين في ذلك على الخطة التالية:

أولا: تعريف القلصادي
ثانيا: آثاره العلمية
ثالثا: رحلة القلصادي ودورها في تدوين تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس
رابعا: شيوخ القلصادي بتلمسان: التأثر والتأثير
خامسا: انتقال القلصادي إلى وهران
سادسا: التقاء القلصادي بعلماء المغرب الأوسط في بلاد المشرق.

أولا: **تعريف القلصادي**:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي، القرشي، البسطي، الشهير بالقلصادي[1]، نزيل غرناطة[1]، يقول السخاوي بأنّه

1 - المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، د/ط، دار صادر، بيروت، د/ت، م2، ص692/ ابن مريم، المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م، ص274/ الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط2، مطبعة كوستا توماس وشركائه، 1955، ج5، ص50.

ولد قبل سنة 815ه/ 1412م[2]، وتتفق جلّ المصادر التّي ترجمة له على أنّ وفاته كانت في منتصف ذي الحجة سنة 891 ه/ 1486م بباجة افريقية[3].

ذكره القاضي ابن الأزرق فقال: "الشيخ الفقيه الأستاذ العالم المتفنن المصنف الرواية الرحال الحاج الصالح"[4]، وكان القلصادي عالم رياضيات وبها اشتهر لكن هذا لم يمنعه من التألق في باقي الفنون تلقينا وتأليفا، وذلك ما نقف عليه من خلال وصف صاحب كتاب "درة الحجال..." قائلا: "إمام الفرائض والحساب"[5]، وهو ما يؤكّده المقري في نفح الطيب[6]، أمّا التنبكتي فيعرض وصف "أبو عبد الله الملالي" لمعلمه القلصادي فيقول: "كان عالما فاضلا صالحا شريف الأخلاق سالم الصدر، له تآليف أكثرها في الحساب والفرائض..."[7]، وترجم له السخاوي ذاكراً العلوم التي تلقها صاحب الرحلة وأبدع فيها تأليفا؛ مضيفا أنّه قرأ المترجم له القرآن، والفقه، والتفسير، والحديث، والفرائض، والعربية، والنحو، والبيان، والمعاني، والمنظومات والمنطق، والحساب، والهندسة[8]، لقد كان موسوعةً علميةً كبقية علماء عصره الذين برعوا في مختلف علوم المعقول والمنقول.

1 - التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكاتب، طرابلس، 2000م، ص339.

2 - السخاوي، محمد بن عبد الرحمان، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ط(1992م)، ج6، ص14.

3 - ابن القاضي المكناسي، أبو العباس أحمد بن محمد، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، د/ط، مكتبة دار التراث، د/ت، القاهرة، م3، ص 252/ التنبكتي، المصدر السابق، ص340/ المقري، المصدر السابق، ص693.

4 - التنبكتي، المصدر نفسه، ص339/ ابن مريم، المصدر السابق، ص274/ المقري، المصدر السابق، ج2، ص692.

5 - ابن القاضي، المصدر السابق، ص251.

6 - المقري، المصدر السابق، ص692.

7 - التنبكتي، المصدر السابق، ص339.

8 - السخاوي، المصدر السابق، صص14- 15.

كان للصاحب الرحلة مساراً علمياً جمع فيه بين مختلف العلوم العقلية والنقلية، بدأه من بسطة[1] مسقط رأسه إلى أن تنقل بعدها إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، أين اجتمع وتلقّى معارفه على نخبة من العلماء الأجلاء، ونذكرهم باختصار[2]:

- **أبو الحسن علي بن عزيز** (ت840ه/1440م)**:** يذكره القلصادي بالشيخ المقرئ الولي الصالح، كان من أهل الدين والورع، وكانت له عناية بالقرآن الكريم منذ صغره حتى وفاته، قرأ عليه الكتاب العزيز وجوده عليه.
- **محمد القسطرلي (ت844ه/1440ك):** الفقيه الإمام الصدر الورع الخير،كانت له مشاركة في علوم كثيرة من قراءة وحديث فقه وعربية وغير ذلك، يذكر الرّحلة أنّه جوَّد عليه الكتاب العزيز، وقرأ عليه بعض المقالات لابن البناء في الحساب.
- **أبو بكر البياز:** جوّدَ عليه المتَرْجَمُ له بعض الكتاب العزيز، كما قرأ عليه الأكثر من أرجوزة ابن بري، وأرجوزة الحريري في النحو.
- **أبو عبد الله البياني (876ه/1472م):** هذا الشيخ الفقيه الوجيه الخطيب، قرأ عليه صاحب الرحلة رسالة الشيخ ابن أبي زيد، وأواخر ألفية ابن مالك، والنصف الأول من الإيضاح للفارسي، وحضر عليه عدّة كتبٍ في الفقه والنحو وغيرها.
- **جعفر بن أبي يحي:** من العلماء الأجلاء الذين تتلمذ عليهم القلصادي، وصفه بالفقيه الإمام الصدر العالم الخطيب الخطير الكبير الشهير، قرأ عليه المقالات لابن البناء، وبعض الحوفي وبعض فرائض عبد الغافر، بعض التلقين للقاضي، والمواريث منه، مختصر الشيخ خليل من أوله حتى النكاح، وباب المواريث.

1 - بسطة، مدينة متوسطة المقدار، فمن أرادها خرج من وادي آش إلى جبل عاصم ثم إلى قرية يورا إلى مدينة بسطة وبينهما ثلاثون ميلا. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط(1994م)، م2، ص568.

2 - القلصادي، أبو الحسن علي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1985م، صص 83- 86.

- علي اللخمي (844ه/1440م): يعد هذا العالم آخر الشيوخ الذين دَرَسَ عليهم القلصادي قبل رحيله إلى تلمسان كما أثبته في رحلته[1]، قرأ عليه بعض الكتاب العزيز وبعض التفريغ لابن الجلاب، والتلقين للقاضي عبد الوهاب، وشيئا من ابن الحاجب الفرعي، وأكثر التنقيحات للقرافي، وجميع والإيضاح للفارسي، وبعض ألفية ابن مالك، وكتاب الفصيح لثعلب غير مرة، والأكثر من أدب الكاتب لابن قتيبة، وصحح عليه تأليفه المسمى بالتبصرة الكافية في علمي العروض والقافية على الخزرجية وقابل معه نحو النصف الآخر من سيبويه، وحضر عليه كثيرا من تفسير الكتاب العزيز، وكتبا متعددة في علوم شتى[2] ، وهو من حبب للقلصادي ورغبه في زيارة مدينة تلمسان.

إلى جانب هذه المجموعة الأندلسية التي ذكرها القلصادي ضمن رحلته، يفصح لنا عن مجموعةٍ أخرى من العلماء الذين التقى بهم أثناء رحلته بدءً من تلمسان، هذه المدينة الهامة والعريقة بتاريخها وحضارتها وبتراثها، مرورا بتونس، فمصر وصولا إلى المدينة المنورة، وبالرغم من كون الرحلة حجازية إلاّ أنّ منظمها لم يخف أهميتها العلمية، بوصفه وذكره للمحطات التي توقف عندها لأجل ذلك، وهو ما يؤكده ابن مريم قائلا: "ورحلته الحاوية لشيوخه، وهم نيف وعشرون رجلا، أخبرني بها بعض شيوخنا"[3]، ولو أحصيناهم من خلال الرحلة لا وجدناهم ثلاثة وثلاثون عالما، وهذا واحد من أهدافه منذ بداية الرحلة كما ورد ضمن مقدمة الكتاب[4].

ثم ارتحل القلصادي إلى تونس وهي المحطة الثانية التي زَارَهَا بدافع طلب العلم وتحصيله، أُعْجِب بها وبعلمائها، فأقام بها سنتين و نصف حيث نهل من مركزها العلمي في مختلف الفنون العلمية عن العلماء الذين ورثوا عن الشيخ ابن عرفة، وعن غيره من الشيوخ المعاصرين له، ومن بينهم: أحمد القلشاني، أحمد المنستيري، محمد الدهان، محمد بن عقاب، علم الدين الحصني، لتصبح بذلك هذه الرحلة مصدراً هاماً لتراجم شيوخ وعلماء العالم الإسلامي خلال الفترة التي عاصرها.

1 - القلصادي، المصدر السابق، صص89-91.
2 - المصدر نفسه، صص 87، 92.
3 - ابن مريم، المصدر السابق، ص278.
4 - القلصادي، المصدر السابق، ص82.

ثانيا: آثاره العلمية:

يعد القلصادي أحد العلماء الذين تمكنوا من تكوين شخصيتهم العلمية داخل موطن نشأتهم وخارجها، فحصّل من العلوم ما فتح له المجال لتأليف الكثيرة من المصنفات، وهو ما نلتمسه من إشارة التنبتكي قائلا: "آخر من له التآليف الكثيرة"[1]، والتّي تنوعت من الحساب والفرائض إلى الفقه والنحو، فالعروض والنجوم، وكذا التراجم والتصوف، كما مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والقراءات والحديث، وذُكِرَ له أكثر من عشرين مصنفاً[2]، أمّا ابن مريم فذكر له أكثر من ثلاثين عنواناً[3]، في حين يخبرنا المقري عن اهتماماته بالتأليف فيقول: "كان كثير المواظبة على الدرس والكتابة والتأليف"[4]، فأحصى له حاولي أربعون تأليفاً هو الآخر[5]، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

"غنية ذوي الألباب في شرح كشف الجلباب"، "كشف الأسرار عن علم حروف الغبار"، "كشف الجلباب عن علم الحساب"[6]، "كشف الأسرار"، "شرح تلخيص ابن البناء"، "التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد الذي ألفه في تلمسان"، رسالة ذوات الأسماء"، "تحفة الناشئين على أرجوزة ابن ياسمين"، "الضروري في علم المواريث"، "الكليات و شرحه"، "المستوفي في مسائل الحوفي"، "شرحان على التلمسانية الأكبر والأصغر"، "شرح منظومة الشران"، "بغية المبتدي وغنية المنتهي"، "شرح فرائض مختصر خليل، وفرائض التلقين، وفرائض ابن الحاجب"، "أشرف المسالك إلى المذهب مالك"، "شرح مختصر خليل"، "شرح الرسالة"، "هداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام"، "غنية النحاة وشرحاه"، شرح على رجز ابن مالك"، "شرح الجرومية"، " شرح جمل الزجاجي"، "شرح الخزرجية"، "

1 - التنبكتي، نيل الابتهاج، ص339.
2 - المصدر نفسه، ص340.
3 - ابن مريم، المصدر السابق، صص 277- 278.
4 - المقري، المصدر السابق، ص693.
5 - المصدر نفسه، صص 693- 394.
6 - التنبكتي أحمد بابا، الديباج المذهب وذيوله كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ط1، دار الأبحاث، 2005م، ص227.

شرح رجز ابن الفتوح"، "تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب"، والمعروفة باسم رحلة القلصادي، وغيرها من المصنفات في التصوف والقراءات والحديث، تم ذكرها ضمن العديد من كتب التراجم والسير.

عموما، ترك لنا صاحب الرحلة عناوين كثيرة، منها المطبوع، ومنها المخطوط، والواضح أنّ أكثرها كان في مجال الرياضيات، وهو ما جعله يوصف بالرياضي أكثر من أي فن آخر.

ثالثا: رحلة القلصادي ودورها في تدوين تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس:

حاولنا من خلال الأسطر السابقة الوقوف وباختصار عند المراحل الأساسية التّي مكنت القلصادي من تكوين شخصيته العلمية، هذه الأخيرة التّي لا يمكنها أن تكتمل إلاّ من خلال التنقل وزيارة العلماء والشيوخ كما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته، فكانت أهم المحطات التّي توقف عندها صاحب رحلتنا "مدينة تلمسان[1]"، مدينة العلم والعلماء التّي لم يتردد في إعلان رغبته لزيارتها منذ البداية قائلا: "وتحرك الخاطر إلى النقلة والارتحال إلى بر العدوة، والقصد تلمسان، وذلك لما كنت أسمع من ثناء الشيخ عليها وتشوقه إليها..."[2]، وهذا ما يؤكد مكانة المدينة العلمية وكذا شهرة علمائها مع وجود تواصل ثقافي بين الأندلس والمغرب الأوسط، وكذا تنقل العلماء بين المجالين بحرية من اجل الإفادة والاستفادة، أضف إلى ذلك تلك المشيخة التي وقف عندها القلصادي وأحصاها فأخذ منها العلوم بنوعيها العقلية والنقلية.

لكن قبل التعرّف على ما حصّله مؤلفنا من هذه المدينة وغيرها من مدن المغرب الأوسط، وجب الوقوف عند دوافع تأليف هذا الكتاب:

يذكر صاحب الرحلة في المقدمة بعد البسملة والصلاة والسلام على النبي الكريم ما مفاده: "الحمد لله الذي جعل طلب العلم واجبا على بعض

1 - مدينة تلمسان قال عنها البكري (ق5ه/11م) "قاعدة المغرب الأوسط... وهي دار مملكة وناتة وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق... ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك". البكري، المسالك والممالك، تحقيق د.جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج2، صص259-260.

2 - القلصادي، المصدر السابق، ص89.

المسلمين... وفرض الحج على المستطيع من المؤمنين، وألزمهم التكاليف حجة عليهم ودليلا،... ثم سنت العمرة وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام تشريفا له وتعظيما...أمّا بعد فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون معرفا بأشياخي من أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي الله عنهم... وبرحلتي من بسطة مسقط رأسي، وموضع أول أنفاسي،... وسميته: "تمهيد الطالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب"..."[1]، موضحاً في نفس الوقت منهج دراسته الذي اعتمد على المنظومات والمتون وشروحها التي كانت سائدةً في مدارس الأندلس والمغرب في ذلك العهد[2].

إذن لا يخف على الباحث مساهمة الأندلسيين في أدب الرحلة، و كان هذا الأخير مركز إشعاع حضاري عمل على ربط المغرب بالأندلس رغم تباعد المسافات، ومن الواضح حسب مقدمة المؤلِّف أنّ هدفه الأساسي إلى جانب طلبه للعلم هو زيارة البقاع المقدسة انطلاقاً من شمال المغرب الإسلامي، مروراً بمصر وآخر محطاته قبل العودة هي الحرمين الشريفين، وفي هذه الأثناء وكما أثبته من خلال مصنفه حاول القلصادي وبإيجاز تسجيل أهم المحطات في مساره ذهاباً وإياباً، لكنّه لم يول اهتماما كبيراً بوصف المدن ومعالمها وخصائصها، بل تركيزه خصّ أسماء الذين تعرّف عليهم من رجال العلم في فقرات وجيزة، مستهدفاً أهم العلوم التي تلقاها منهم، وبخاصة عند وصفه لعلماء وشيوخ تلمسان، وما هذا إلاّ تأكيداً على تلك العلاقات الثقافية التي رسمتها هذه النخبة من العلماء بين القطرين.

رابعا: <u>شيوخ القلصادي بتلمسان: التأثر والتأثير</u>:

كانت بداية الرحلة التي قام بها القلصادي عام 840هـ/1437م، ركب البحر نحو وهران، أقام بها أيّاماً ليتجه بعد ذلك إلى تلمسان، ويقول في ذلك: "ثم توجهنا إلى المقصودة بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان..."[3]، ولم يتوان عن ذكر مكانتها العلمية فقال: "وأدركت فيها كثيراً من العلماء والصلحاء العبّاد والزهّاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين

1 - المصدر نفسه، صص 81-83.
2 - أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص388.
3 - القلصادي، رحلة القلصادي، ص 95.

والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر العيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[1]، وقد دامت مدة بقائه بتلمسان ثمانية أعوام، وكان خروجه منها باتجاه وهران عام 848ه/1444م[2]، والظاهر أنّ القلصادي كان متأثراً بعلماء العاصمة الزيانية ومجالسة شيوخها، وهذا ما جعله يقضي بها مدة طويلة حوالي ثمانية سنوات.

أمّا عن مشيخته بتلمسان فيخبرنا صاحب كتاب **الضوء اللامع لأهل القرن 9** ما مفاده: "فوجد أبا الفضل المشدالي[3] هناك فرافقه في الاشتغال فلازم الشيخ أحمد بن زاغو[4]... وقاسما العقباني[5]... ومحمد بن مرزوق[6] فدرس التفسير والحديث والفرائض والنحو وعلى العقباني في التفسير والحديث والفقه والأصلين وعلى ابن زاغو في التفسير والحديث والفقه والفرائض والحساب والهندسة والنحو والمعاني والبيان وعلى عيسى بن أمزيان... في الفرائض والحساب والمنطق وعلى محمد بن النجار[7] في أصول الفقه والمعاني والبيان وغيرهم وقرأ بعض مستصفى الغزالي على

1 - المصدر نفسه، ص 95.

2 - نفسه، ص 110

3 - محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد، البجائي، كان إماما كبيرا مقدما على أهل عصره في الفقه وغيره، توفي سنة 866هـ . التبكتي، نيل الابتهاج...، ص538.

4 - أحمد بن زاغو المغراوي التلمساني، يعرفه ابن مريم قائلا: "الشيخ العالم الفاضل، الولي الصالح، الصوفي الزاهد، العلامة المحقق، القدوة، المحقق، المصنف...، له تآليف كثيرة... وله غتاوي كثيرة في أنواع العلوم أثبت منها في كتاب المعيار ونوازل المازوني جملة كثيرة. ابن مريم المصدر السابق، ص117

5- قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني، أبو الفضل، كان مفتيا، وحافظا، وعلاّمة مجتهدا عارفا، عرّفه ابن مريم اعتمادا على ما ورد لدى القلصادي، توفي سنة854هـ. ابن مريم، البستان غي ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ص284-286 .

6 - المعروف بابن مرزوق الحفيد، له مناقب كثيرة ذكرها ابن مريم كان له علم واسع واطلاع مفرط على المنقول، والقيام التام على الفنون بأسرها، توفي سنة 842هـ، صص 365-380.

7 - محمد بن أحمد بن النجار التلمساني، العلامة الفقيه الأصولي أبو عبد الله، عرّف به القلصادي في رحلته، توفي سنة 846هـ/ 1442م. ابن مريم، المصدر السابق، ص 390.

رفيقه أبي الفضل المذكور لما رأى من نبله وتقدمه وفضله وثناء مشايخه عليه"[1]، أمّا صاحب الرحلة فيفصح عن مشيخته بدءً ب:

- محمد بن مرزوق[2]:

أبو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن مرزوق العجيسي، الإمام المشهور الحافظ الفقيه المجتهد المفسر المحدث[3]، أثنى عليه القلصادي وقال عنه "الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير المشهور شيخنا وبركتنا"، مضيفا أنّ أوقاته كلها كانت معمورة بالطاعات ليلا ونهارا: من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وكان له بالعلم عناية تكشف بها العماية، ودراية تعضدها الرواية، ونباهة تكسب النزاهة على حد تعبير صاحب الرحلة، يقول الحفناوي أنّه كان "آية الله في تحقيق العلوم والاطلاع المفرط على النقول والقيام الأكمل على الفنون بأسرها"[4].

لقد ذكر المتَرْجَمُ له بأنّه قرأ على بن مرزوق بعض كتابه في الفرائض، وأواخر الإيضاح للفارسي، وشيئا من شرح التسهيل لابن مالك، كما حضر عليه نحو الربع من إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيتين، والأكثر من ابن الحاجب الفرعي، والتلقين وبعض الرسالة وأكثر التسهيل لابن مالك، وكذلك الألفية والكفاية وابن الصلاح في الحديث، والمنهاج للغزالي، وغير ذلك من الكتب[5].

- عيسى الرتيمي أبو مهدي[6]:

يذكره صاحب الرحلة بالشيخ والبركة، والفقيه الصدر العلم في الفرائض والعدد، أحد عصره، وفريد دهره في فنه، كان الشيخ متواضعاً وخَلُقاً، ومقصد حسن في التعليم، وكان يقول للقلصادي كلما زاره للقراءة: لو كان في قدرتي أو أمكنني أن أعلمك كل ما عرفته في آن واحد لفعلت، ولم

1 - السخاوي، المصدر السابق، ص15.
2 - القلصادي، المصدر السابق، صص 96- 97.
3 - التنبكتي أحمد بابا، الديباج المذهب ، ص 221
4 - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ، تقديم الحسني محمد رؤوف القاسمي ،موفم للنشر ، الجزائر ،1997 م ، ج2 ، ص 147 .
5 - القلصادي، رحلة القلصادي، ص97/ المقري، المصدر السابق، ج5، ص427.
6 - القلصادي، المصدر نفسه،صص 98 – 99.

نتعبك بالغدو والرواح إليّ، ومن الواضح أنّه كان متمكناً في بعض المعارف؛ إذ لم يرى القلصادي أعلى منه بكتاب الحوفي في الذين أخذ عنهم، كما قرأ عليه كتاب الحوفي من مواضع مختلفة، بطريقتي الصحيح والكسور.

- محمد الشريف:

يختصر المُتَرْجَمُ له في تعريفه قائلا: "ومنهم شيخنا الفقيه الإمام الصدر العلم الحسيب الأصيل: سيدي أبو عبد الله محمد الشريف إمام مسجد الخراطين"[1]، توفي سنة 847هـ/ 1444م، قرأ عليه تلخيص المفتاح، وبعض التسهيل لابن مالك، وكذلك مفتاح الأصول للسيد الشريف التلمساني[2]، وحضر عليه بعض الألفية وبعض المرادي عليها، والجمل للزجاجي والتنقيحات للقرافي[3].

- يوسف الزيدوري[4]:

يعرّف القلصادي هذا العلاّمة فيقول:"شيخنا الفقيه المتفنن في المعقول: سيدي أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري... كانت له مشاركة وقدم في علوم الرياضيات"[5]، تتلمذ عليه مُؤَلِّفُ الرحلة فقرأ عليه تلخيص ابن البناء غير مرة، وكذلك الحوفي بطريقتي التصحيح والكسور، وبعض الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة لابن البناء، وشيئا من رفع الحجاب، كما حضر عليه التلخيص والتلمسانية والمقالات، والجمل للخونجي[6].

- محمد بن النجار[7]:

1 - القلصادي، رحلة القلصادي، ص99.

2 - محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الإدريسي الحسني أو أبو عبد الله الشريف، وأبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي، ويعرف كذلك بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلويين، ويُعرَف بالشريف التلمساني، وكذلك ب: شارح الجمل للخونجي، وصاحب الفروع والأصول، توفي 771ه/1370م، التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، ص 70.

3 - القلصادي، المصدر السابق، ص100.

4 - يوسف بن إسماعيل الشهير بالزيدوري، نقل ابن مريم نفس ترجمة القلصادي، توفي في الوباء سنة 845هـ/1441م. ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ص504.

5 - المصدر نفسه،ص100/ ابن مريم، المصدر السابق، ص504 .

6 - القلصادي، المصدر نفسه، ص101/ ابن مريم، المصدر نفسه، ص505.

7 - القلصادي، المصدر نفسه ،ص 102.

كانت لمحمد بن النجار مشاركات علمية متنوعة شملت العلوم النقلية والعقلية، وهو ما أخبرنا به عالم الرياضيات المترجم له، ويكشف لنا بأنّه قرأ عليه بعض مختصر خليل، وبعض المستصفى للغزالي، وبعض ابن الحاجب الأصلي، وكذلك تلخيص المفتاح، وحضر عليه بعض تفسير الكتاب العزيز، وبعض كتاب الإرشاد لإمام الحرمين والمنهاج للبيضاوي، والبرهانية للسلالجي، وجمل للخونجي وتلخيص المفتاح غير مرة، وبعض الخفاف، شيئا والمدونة.

-أحمد بن زاغو:

بن زاغو من العلماء الذين اعتّز القلصادي بمجالستهم، ونال حظاً أوفر في الرحلة مقارنة بجملة العلماء الذين ذكرهم، ويعرّفه قائلا: "شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام المفتي المصنف المدرس المؤلف، ذلك سيدي أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمان المغراوي الخزري شهر بابن زاغو"[1]، مؤكّدا على أنّ نسبه أشهر من الشمس في السّماء، وحسبه كاتساق عقد النّجوم في بحر الظلماء. لقد كان مجلس بن زاغو محببا لصاحب رحلتنا حتى أنّه كان يرتاح أثناء حضوره له، وكان ينسيه وحشة وطنه، كما استفاد منه كثيراً[2].

لقد قرأ القلصادي على بن زاغو رواية جميع صحيح البخاري، ومن أول كتاب مسلم إلى باب الوصايا، وقرأ عليه من مؤلفاته مقدمته على التفسير وتفسير سورة الفاتحة، والتذييل في ختم التفسير، ومنتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح غير مرة، وشرح التلخيص لوالده، وقرأ عليه أيضا الحكم لابن عطا الله وشرحها ثانيا لابن عباد، ولطائف المنن، وتأليف أبي يحيى الشريف على المغفرة، وبعض القصد إلى الله، وكذلك كتاب الإحياء للغزالي، وبعض مختصره لأبي عبد الله البلبالي، ومن مختصر الشيخ خليل من الأقضية إلى آخره، وابن الحاجب الفرعي من الأيمان والنذر، وبعض ابن الحاجب الأصلي[3].

1 - عزداوي نور الدين، كتب الفتاوى مصدر لكتابة التاريخ الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي للمغرب الأوسط نوازل المازوني نموذجا، مجلة الدراسات التاريخية، ع 14، 1433ه/2012م، ص 97.

2 - القلصادي، المصدر السابق، ص103.

3 - المصدر نفسه، ص104.

ومن خلال مجالسة القلصادي للعالم بن زاغو توصّل إلى معلومة هامّة عن الأوقات التي تناسب كلّ علمٍ وقراءته، إذ يقول: "ولازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية للتفسير والحديث والفقه في أزمنة الشتاء، والأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسية في زمن الصيف، ويوم الخميس والجمعة لقراءة التصوف وتصحيح تأليفه"[1]، وهذا ما يؤكد على أنّه كان يستأنس كثيراً بابن زاغو ويحب حضور دروسه، غير أنّ وفاة هذا الإمام المفتي عام 845ه/1441م أحدثت الوحشة في قلب صاحب الرحلة، وهو ما عبّر عنه قائلا: "وكانت له جنازة عظيمة حضرها الخاص والعام، وأسف الناس لفقده. وأمّا أنا فوجدت لفراقه ما يجده المعبد من مرامه، أو المُرضع عن فطامه"[2].

- قاسم العقباني:

أبو الفضل قاسم العقباني يثني عليه صاحب الرحلة قائلا: "شيخنا وبركتنا الإمام الفقيه المعمر ملحق الأصاغر بالأكابر، العديم النظراء والأقران، المرتقي درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان"[3]، ذكراً انفراده بفني المعقول والمنقول، وتمكنه من علمي اللسان والبيان، مضيفاً توليه خطة القضاء في صغره، مؤكداً على أنّه أحرز طلب العلم قصد السبق وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل اعجازه، عكف على تعليم العلوم، وعطف على تقدير المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفذاذ وأمتع الجهابذة والنفاد، واسمع الأسماع ما اشتهى كل منها وأراد، سمع منه القلصادي وأخذ عنه، ولازم مجلسه بعد وفاة الشيخ أحمد بن زاغو إلى أن ارتحل من تلمسان[4]، ومن الواضح أنّ مؤلّفنا أشبع وحشة ابن زاغو بمجالسة العقباني.

أمّا عن قراءاته عليه فشملت بعض مختصر المدونة لابن أبي زيد، وبعض مختصر خليل، وبعض الحكم لابن عطاء الله وشرحها لابن عباد، وبعض الحوفي بطريقتي التصحيح والكسور، وبعض المناسخات من الشرح

[1] - نفسه، ص104.
[2] - نفسه، صص 105- 106.
[3] - القلصادي، رحلة القلصادي،ص106.
[4] - المصدر نفسه، ص107/ ابن مريم، المصدر السابق، ص285.

لوالده سيدي سعيد، وبعض مختصره في أصول الدين، وغير ذلك. كما حضر عليه كتبا متعددة في علوم شتى، توفي عام 854ه/ 1450م[1].

إلى جانب هؤلاء الأئمة الفقهاء المتبحرين في العلوم العقلية والنقلية، يخبرنا القلصادي عن شيوخٍ آخرين بتلمسان حضر مجلسهم دون أن يقرأ عليهم، وذكرهم على التوالي مختصراً[2]:

- الحسن بن مخلوف الراشدي[3]:

اختصر صاحب الرحلة في تعريفه له فذكره بالشيخ الولي الصالح الشهير بأبركان، مضيفا أنّ شهرته تغني عن تعريفه، كان فقيها، وإماما، وعالما بالمعقول.

- محمد بن العباس، أبو عبد الله:

من أكابر علماء تلمسان و أحد أوعية العلم بها، يذكره البسطي بالفقيه الإمام، كان له تفننا في مختلف العلوم.

- سليمان البزيدي:

يذكره صاحب الرحلة بالفقيه الإمام العالم بمذهب الإمام مالك. من الواضح أنّ القلصادي كان مهتما بمختلف العلوم العقلية والنقلية محلّ اهتمام علماء تلمسان، وفي نفس الوقت كان تركيزه على علم الرياضيات، إذ قرأ كتاب "الحوفي بطريقتي الصحيح والكسور" على بعضهم، هذا بالإضافة إلى الحساب والهندسة والجبر والمقابلة، كما أنّ صحبته لابن زاغو أعطته الفرصة لكي يقرأ عليه كتابه (لابن زاغو) "منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح" عدة مرات، هذا المصنف الذي ذكره الزركشي بعنوان "التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح"، ويقول

1 - القلصادي، المصدر السابق، ص107.

2 - المصدر نفسه، صص108- 109.

3- الحسن بن خلوف بن مسعود بن سعيد المزيلي الراشدي، الشهير بأبركان، عرّف به ابن مريم وذكر له مناقبه كثيرة، عُرِفَ بتكريمه للعلم، وكذا بزهده ومداومته على الصوم، كما كان ولداً باراً. ابن مريم، المصدر السابق، صص169- 198.

أنّه: "استوفى فيه طريق القرشي بالكسور واستنبط فيها أشياء ظهرت له لم يسبق إليها"[1].

وما يلفت الانتباه من خلال التعاريف التي قدمها صاحب "تمهيد الطالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب"، هو أنّ جل العلماء الذين اهتموا بعلم الفرائض (علم الميراث) كان لهم إقبال على علم الرياضيات من حساب وجبر ومقابلة، لضرورة ذلك بالنسبة لمسائل الوصايا والخلع والإجارة والنكاح وغير ذلك من المسائل التي تتطلب الحساب.

خامسا: انتقال القلصادي إلى وهران:

لقد كان القلصادي محباً ومتطلعاً للرحلة، وبعد بلوغه المرام بمدينة العلم والعلماء تلمسان تحرك خاطره إلى الانتقال، ويقول ما مفاده: "وتشوقت النفس إلى الارتحال، وتذكرت كلام القاضي عبد الوهاب بلسان الحال:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه واتعب فإن لذيذ العيش في التعب
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لميطب[2]

وبعد خروجه من تلمسان جمع الرّحال صوب مدينة وهران، أقام بها برهة من الزمان، مع الأحباب والإخوان[3]، منهم من كانت لهم أصول أندلسية، ومن جملة من لقي من الأحباب والإخوان:

- **أبو عثمان سعد الشلوني:** يقول عنه: "الشيخ المتبرك به، مقام الوالد إمام الجامع الأعظم سيدي أبو عثمان سعد الشلوني رحمة الله عليه، كان أصله من قندية بأرض شاطبة وهاجر منها إلى أرض الإسلام"[4]، فالأندلسيون وجدوا بسواحل المغرب الأوسط مستقراً لهم، لقربها من سواحل البلاد الأندلسية، وكانت لهم مساهمات حتّى في إعادة إحياء بعض مدن الموانئ بالمنطقة.

1 - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص140.
2 - القلصادي، رحلة القلصادي، ص110. الأبيات بتصرف
3 - المصدر نفسه، ص110.
4 - القلصادي، نفسه،ص111.

- **إبراهيم التازي**[1]**:** يخبرنا عنه بإيجاز فيقول: "الشيخ المتبرك به إبراهيم التازي رحمة الله عليه خليفة سيدي محمد الهواري في وقته، كان له اعتناء بكلام شيخه"[2]، ويضيف الفقيه الصدر **يحيى الهنيني**[3] رحمه الله، ويذكر الشيخ الفقيه الصدر، **أبو الحسن علي بن قاسم** الشهير بالحداد، وكذا الفقيه الإمام **أبو الربيع سليمان الحميدي**، وغيرهم من العلماء والفقهاء[4].

الملاحظ مما سبق ذكره أنّ القلصادي كان يذكر هؤلاء الأعلام باحترام وتقدير، فكلّما ذكر عالما إلاّ وقرن إسمه ب: سيدي، وشيخنا، وبركتنا، أو المتبرك به، وهي عبارات تدّل وتؤكد على مكانة هؤلاء الرجال العلمية في المغرب الأوسط وخارجه خاصة بالأندلس، ويكفينا في ذلك أنّ علي اللخمي شجّع ورغّب تلميذه على زيارة مدينة تلمسان، وهذا ما يؤكد على تلك العلاقة الثقافية التّي كانت قائمة بين الإقليمين، كما أنّ الأسماء التي ذكرها لم نقف لها على ترجمة مستوفاة، وكلّ من عرّف بهم إلاّ واعتمد على ترجمة القلصادي.

سادسا: <u>التقاء القلصادي بعلماء المغرب الأوسط في بلاد المشرق</u>:

لم يكتف القلصادي باستئناس علماء المغرب الأوسط في مواطنهم التي ينتمون إليها، بل يخبرنا ويكشف لنا من خلال رحلته أنّه التقى بمجموعة أخرى بالديار المصرية والمدينة المنورة؛ فبعد وصفه المختصر للقاهرة وبعض معالمها يقول: "ونزلت بجامع الأزهر، ووجدت هناك بعض الفضلاء والأخيار من أهل المغرب"[5]، ثم يضيف معتزاً فيقول: "وبعد ذلك وقع اجتماعنا بصاحبنا الفقيه الفذ في وقته ذي العلوم الفائقة والمعاني الرائقة **أبي الفضل المشذالي**. لم أر مثله في تحصيل العلوم وتحقيقها، آخذ في كل علم

1 - إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي، نزيل وهران، أصله من بني لنت قبيلة من بربر تازة، وشهر بالتازي لولادته بها، إمام عالم، ناظم، زاهد صالح، قطب عارف، صاحب كرامات وله مناقب كثيرة ذكرها ابن مريم في بستانه، توفي سنة 866هـ/ 1462م. ابن مريم، المصدر السابق، صص144- 152.

2 - القلصادي، المصدر السابق، ص111.

3 - لم اقف له على ترجمة مستوفاة ماعدا تلك التي ذكرها القلصادي، ونفله عنه أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، الذي أضاف محققه أنّه عرف بالهنيني نسبة إلى هنين على ساحل المغرب الأوسط . التنبكتي، المصدر السابق، ص 636.

4 - رحلة القلصادي، صص 111- 112.

5 - القلصادي، المصدر السابق، ص126.

بـأوفر نصـيب، وضـارب فيـه بسـهم مصـيب، وتـذكرنا أزمانـا مضـت لنـا بتلمسان، ويا لها من ليالي وأيام، مع أشياخٍ وسادةٍ أعلام"[1]، وهنا تأكيد على مـدى اتسـاع علـوم المشـذالي وغيـره مـن الأشـياخ بمدينـة تلمسـان، حتـى أنّ القلصادي ذكر بما كان له من مجالستهم.

يتابع القلصادي وصف رحلته ويخبرنا عن وصوله إلى البقاع المقدسة، وأداء مناسك العمرة، وكذا زيارتـه للمعالم والأماكن المقدسة، دون أن ينس ذكر الأحباب والأصحاب[2]، ومن ذلك قولـه: "ووقع إلفنا بالشيخ المتبرك بـه الـولي الصـالح **سـيدي قاسـم بـن الحسـين التلمسـاني** رضـي الله عنـه، .... وخصني ببيته من رباط الموفق، فتمتعت بمؤانسته وتمنعت إلا عن مجالسته، وتعاطينا أحاديث كأنها رضـاب، وفوائد لها بيننا اقتضاء، وتـذكرنا أزمانـا سلفت بتلمسان مع أشياخنا منهم والأعيان، تداركهم الله بالرحمة والرضوان"، ويضـيف مـن الرجـال الصـلحاء قـائلا: "ووقـع أيضـا اجتماعنـا بـالأخ فـي الله تعالى الفقيه الصدر: **أبي الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني**، شقيق إخـاء لا شقيق أخوة، نسيب صفاء إن تذكرت نسيبا... نزل في طلب العلم الشريف عن الأوطان، حتى فاق النظراء من أهل زمانـه والأقران"، ويضيف قـائلا: "وهناك عرفت الشيخ المرابط سيدي **أحمد الزواوي** رحمـة الله عليـه، وكذلك خلاصـته وصـديقه الأخ فـي الله تعـالى سـيدي **عيسـى الـزواوي** حفظـه الله، وغيرهم من الأوداء والأحباب...".

ولا غرابة في ذلك، فرحلة المغاربة عامة إلى المشرق كانت، علـى وجـه العمـوم، أكثـر مـن رحلـة المشـارقة إلـى المغـرب، فمركـز الحـج فـي المشرق، ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يقوم المغاربـة بزيـارة المنطقة (المشرق)[3]، وهذا ما ساعد القلصادي على إعطاء صورة عن نخبـة العلماء الذين حافظوا على السند العلمي وكذا تعاونهم في خدمة الثقافة والدين الإسلامي في آن واحد[4].

1 - المصدر نفسه، ص127.
2 - نفسه، ص134.
3 - نقولا زيادة، المرجع السابق، ص147.
4 - أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص397.

بعد أدائه لفريضة الحج يغادر القلصادي المدينة الشريفة نحو مصر (عام 852ه/1448م)، وهناك اشتغل بطلب العلم قراءةً وإقراءً، ويخبرنا عمّن لقيهم هناك قائلا: "وتجدد تألفنا بالشيخ المرابط الموقر الملحوظ مقام الوالد: سيدي **أحمد الزواوي** رحمة الله عليه، وكذلك بخلاصته الصاحب الأوفى، المصافى الأصفى، الأخ في الله تعالى سيدي **عيسى الزواوي**، وغيرهم من الأحباب"[1]، لم يكتف الرحّالة بزيارة الأحياء بل كان يتبرك حتّى بزيارة الأموات.

استمرت رحلة البسطي من مصر إلى تونس فوهران فدخلها في 10شعبان 854ه/ 18 سبتمبر 1450م، قاصداً بذلك زيارة من علق به من أهل تلمسان، فوجد بها الشيخ بركة الوقت **سيدي الأحسن** فأمره هذا الأخير بالمقام عنده، فامتثل لأمره وقعد عنده مدّة من الزمان، وكان دخوله تلمسان يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول عام خمسة وخمسين وثمانمائة ه=21 أفريل 1451م[2].

لقد كان الرّحالة شغوفاً بلقاء شيوخ وعلماء المغرب الأوسط، وبخاصة تلمسان، واستطاع خلال فترات مكوثه بها أن يغرف من علماءها ما استطاب له من العلوم، فهذا أحد أهدافه منذ بداية الرحلة، لقد أفاد واستفاد، وهو ما تؤكده المصنفات التي تركها خلفه، لقد كان صاحب الرحلة موجزاً في معلوماته غير أنّه ذكر ما يقارب إثني وعشرون (22) اسماً لعلماء وفقهاء من المغرب الأوسط، منهم من حضر مجلسه وكان على قيد الحياة، ومنهم من لم يحظ بمجالسته لأنّه كان على ذمة الله، وهو ما يؤكده بعبارة "رحمة الله عليه"، وما زاد من أهمية الرحلة انّ صاحبها استمتع بذكر العلوم التي دَرَسَهَا عن علماء المنطقة، وهذا في الواقع ما هي إلاّ سمة العلماء الموسوعيين خلال العصر الوسيط.

والظاهر أنّ تواجده بعاصمة العلم والعلماء، تلمسان، لم تكون بدون فائدة، فالسخاوي يخبرنا بمعلومات مهمة لم يذكرها القلصادي، فيقول: "ولم يزل إلى أن برع في الفرائض والحساب وصنف في ذلك في تلمسان كتاب

1 - القلصادي، المصدر السابق، ص149.
2 - المصدر نفسه ص161.

التبصـرة فـي الغبـار وشـرح أرجـوزة الشـران... فـي الفـرائض وأرجـوزة التلمساني فيها في مجلدة لطيفة وشرح الحوفي في مجلدة، ثم رحل من تلمسان في آخر سنة سبع وأربعين..."[1] ، فمدينة الزيانيين لم تكن مكاناً لتلقي مختلف العلوم العقلية والنقلية، بل ساعدته الفترة التي قضاها بها على استثمار ما أخذه عن أفضل علمائها في مجال التأليف، وبهذا يكون صاحب الرحلة قد جنى أطيب الثمار العلمية واِحتك ببعض أقطاب عصره في المغرب والمشرق، كما أنّه كان أكثر علماء الأندلس في عهده الأخير إنتاجاً والتّي كان أكثرها في الحساب والفرائض[2].

كما سلف الذكر، استفاد صاحب رحلتنا من رحلته إلى مدن المغرب الأوسط وأفاد، إذ درّسَ بتلمسان، وحضر إليه عدد كبير من الطلبة؛ فصاحب كتاب "نيل الابتهاج" يخبرنا عن الذين أخذوا عنه قائلا: "أخذ عنه شيخنا[3] أبو عبد التونسي جملة من الفرائض والحساب، وأجازه جميع ما يرويه عنه، ثم لما قدم من الأندلس استقر عند سيدي محمد بن مرزوق يعني الكفيف، ولد الإمام الحفيد ابن مرزوق فقرأ عليه جمٌّ غفير من النّاس"[4]، كما أنّ أبا عبد الله الملالي التلمساني تلميذ السنوسي أخذ عنه أيضا، وهو ما نقلته لنا بعض المصادر على لسانه: "... وأخذت عنه أنا تأليفه في العربية"[5]، لهذا وُصِفَ القلصادي ب: "الشيخ العالم الآجل الصالح..."[6].

خلاصة القول، اتبع صاحب الرحلة في كتابه أسلوب الإيجاز في وصف ما شاهده وما رآه، لأنّ تركيزه كان على دراسة العلوم وكذا الشيوخ الذين اتصل بهم وما أخذه عنهم من معارف، وبالرغم من أنّه أحصى مشيخته ومن استأنس بهم من شيوخ وعلماء، إلاّ أنّ المادة التي أفادنا بها تعطينا صورة واضحة عن ذلك التواصل الثقافي بين مناطق العالم الإسلامي عامة.

1 - السخاوي، المصدر السابق، ج6، ص15.
2 - أحمد رمضان أحمد ،المرجع السابق، ص397.
3 - المتحدث هنا أبو عبد الله الملالي التلمساني يخبر عن شيخه السنوسي.
4 - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص339/ ابن مريم، المصدر السابق، ص275.
5 - أحمد بابا التنبكتي، المصدر نفسه، ص339/ ابن مريم، المصدر نفسه، ص275.
6 - ابن مريم، نفسه، ص414.

خاتمة:

الرحلة سبيل لاكتساب العلم والمعرفة من المراكز العلمية المختلفة وأداة تواصل حضاري بمفهومه الواسع، وبالنسبة ل"تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب" الشهير برحلة القلصادي، جاءت خالية من الأوصاف السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية لكنّها تمدُّنا بمعلومات ثقافية هامّةٍ، فهي وثيقة من الوثائق التي يمكن الاستعانة بها من اجل كتابة تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، كما اعتمدتها العديد من المصادر لتوثيق حقائق هامّة عن علماء وشيوخ من المغرب الأوسط نزل عندهم القلصادي وأخذ عنهم أو استأنس بهم.

إنّ الرحلة القلصادية الطويلة والتي دامت قرابة خمسة عشرة سنة (15) كانت ذات طابع علمي حجازي، زار خلالها أهم مراكز الإشعاع الثقافي بالمغرب الأوسط على رأسها مدينة "تلمسان"، فأثمرت مجهوداً فكريا وثقافياً لا يستهان به سواء كان ذلك في مجال التأليف أو التعريف برجال العلم، خاصة وأنّ المنطقة كانت تعيش أزهى أيّام حياتها الثقافية، كما لا يجب أن ننس ذلك الاهتمام الذي أبداه صاحب الرحلة حين كان يجتمع بعلماء وفقهاء العاصمة الزيانية، حتى أنّه صوّر عمق تأثره بالنشاط العلمي الكبير الذي كانت تتمتع به تلمسان، ذاكرا شيوخه العلماء الذين درس عليهم جملةً من العلوم، والمدارس التي دَرَسَ بها كالمدرسة اليعقوبي، فأبان بذلك المستوى العلمي الذي كانت تتمتع به تلمسان الزيانية مقارنة بمثيلاتها من حواضر المغرب الإسلامي والأندلس .

القائمة المصادر والمراجع:

- الإدريسي، أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن ادريس، (ق6ه/12م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، د/ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
- البكري، أبو عبد الله (ت487ه/ 1094م) المسالك والممالك، تحقيق د.جمال طلبة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- التنبكتي أحمد بابا (ت 1036ه/ 1627م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكاتب، طرابلس، 2000م.

- .....، الديباج المذهب وذيوله كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ط1، دار الأبحاث، 2005م.
- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، (ت808ه/ 1405م)، المقدمة، د/ط، دار الجيل، بيروت، د/ت.
-الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
- الزركلي خير الدين، (ت1396ه/ 1976م)، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط2، مطبعة كوستا توماس وشركائه، 1955م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمان، (ت902ه/ 1497م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، د/ط، دار الجيل، بيروت، 1992م.
- ابن القاضي، المكناسي، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت 1025ه/ 1616م)، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، د/ط، مكتبة دار التراث، القاهرة د/ت.
- القلصادي، أبو الحسن علي، (ت 891ه/1486م)، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1985م.
- ابن مريم المليتي المديوني التلمساني، (كان حيا سنة 1025ه/1616م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م.
- المقري، أحمد بن محمد، (1041ه/ 1631م)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، د/ط، دار صادر، بيروت، د/ت.
-الحفناوي، أبو القاسم، (1360ه/ 1943م)، تعريف الخلف برجال السلف، تقديم الحسني محمد رؤوف القاسمي، د/ط، موفم للنشر ، الجزائر ،1997 م.
- أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، د/ط، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د/ت.
- زكي محمد حسن، الرحلة المسلمون في العصور الوسطى، د/ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافية، القاهرة، د/ت.
- عبد اللطيف مؤمن، رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس، ضمن كتاب جماعي "أدب الرحلة

والتواصل الحضاري"، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1993م.
- عزداوي نور الدين، كتب الفتاوى مصدر لكتابة التاريخ الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي للمغرب الأوسط نوازل المازوني نموذجا، مجلة الدراسات التاريخية، ع 14، 1433ه/2012م
- نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط(1987م).